كنانيش 3 -منشورات كلية الأداب والعلوم الإنسانية وجدة - ص: 63-74

الرحلة بين النص والوثيقة:
صورة طاعون سنتي (1798-1800) ومخلفاته
في رحلة جيمس غري جاكسون

كريم بجيت
Karim BEJIT

Le récit de voyage: texte / document
L'image de la peste de 1798-1800 et ses conséquences
dans le récit de James Grey Jackson

Résumé

Cet article essaie d'exposer les conséquences démographiques, économiques et sociales de la peste de 1798-1800 à partir du récit de voyage de James Grey Jackson, Consul britannique au Maroc pendant 16 ans. De ce fait, il s'agit d'un document qui revêt une grande crédibilité.

An Account of the Empire of Marocco
and the Districts of Suse and Tafilett (1811)

Abstract

This paper engages with the image of the plague which ravaged Morocco towards the end of the 18th century as constructed in James Grey Jackson's An Account of Marocco (1811). Jackson's testimony to this destructive phenomenon gains some authority from the fact that he had been a British consul in Morocco for nearly 16 years. But does familiarity with a particular geographical or cultural space necessarily ensure accuracy of information ? Is not the travel narrative far more complex a text than what is commonly thought to be ? Is the travel narrative a document or a text ? Can there be a clear-cut demarcation ? These questions consist the focus of this paper.

من خلال تركيزها على أحد فصول رحلة القنصل البريطاني جيمس غري جاكسون James Grey Jackson المخصص لوباء الطاعون الذي حل بالمغرب خلال سنوات (1798-1800)، تقدم هده المداخلة قراءة مركبة لهده الظاهرة ولآثارها العميقة على النمو الديمغرافي والتحولات الاقتصادية والاجتماعية للساكنة المغربية. وإذا كانت جل الدراسات التاريخية المرتبطة بهده الفترة تؤكد تقلص عدد السكان المغاربة بفعل الحروب والمجاعات والأوبئة، فان الإحصاءات المقدمة اختلفت اختلافا كبيرا من محلل لآخر ومن مصدر تاريخي لآخر. لكن ما يستوقف القارئ لرحلة جاكسون هو كونها تستمد مادتها من وجود هذا القنصل البريطاني في المغرب لمدة تقارب ستة عشر عاما ومواكبته لأطوار هدا الطاعون، الشيء الذي جعل شهادته تكتسي قيمة علمية بالغة لدى العديد من الباحثين المتخصصين أمثال دانييل نوان Daniel Noin ، ومحمد الأمين البزاز.

وبينما توفر هذه الدراسة تحليلا دقيقا لصور هذا الطاعون من خلال رحلة جاكسون، فإنها تبتعد عن التعامل معها بمنهجية المؤرخ والتي تعتمد على مقياسي الحقيقة والموضوعية. فعلى عكس هذه القراءة التاريخية، تحاول هذه الدراسة إثارة الانتباه إلى الإطار التاريخي للرحلة باعتبارها نصا يستهدف القارئ البريطاني، ويعكس وعيا أجنبيا بالثقافة المغربية. وهكذا من خلال مساءلة الشكل الجمالي لهذه الرحلة، ومن خلال تحليل التراكيب اللغوية لهذا النص تتضح أبعاد أخرى للرحلة تتجاوز قيمتها كوثيقة. ذلك أن رحلة جاكسون هي إحدى الرحلات القليلة الأولى حول المغرب التي بدأت تخرج إلى حيز الوجود خلال نهاية القرن الثامن عشر مؤسسة لنمط جديد من الكتابة، وأيضا لرؤية جديدة للثقافة المغربية أكثر التصاقا واحتكاكا بها من الأجناس الأدبية الأخرى.

في بداية القرن الثامن عشر الميلادي على إثر انتشار الرحلة العجائبية وكثرة صور المبالغة في كتب الرحالة والملاحين البريطانيين، كتب الروائي الإرلندي جونتان سويفت في مؤلفه الشهير، رحلات غالفير Guilliver's Travels :

"وددت من كل قلبي لو كان هناك قانون يفرض على
كل رحالة، قبل أن يسمح له بنشر رحلاته، بأن يقسم
أمام رئيس مجلس اللوردات بأن كل ما ينوي نشره

هو حقيقي حسبما يدرك. هكذا لن ينخدع العالم كما هو حاله الآن حينما يصر بعض الكتاب، من أجل كسب الشهرة، على تقديم أفكار مزيفة للقارئ البسيط." (ص 313).

تعكس مقولة سويفت هذه، التي يختتم بها حكايته عن الرحلات العجائبية الأربع لغالفير، تصورا نقديا، وإن كان في قالب ساخر للمعرفة المتراكمة حول المناطق المكتشفة آنذاك في إفريقيا وجزر الكاريبيين وفي آسيا وجنوب المحيط الهادئ، وهي المعرفة التي تغذت من وجود متزايد للذات الأوروبية في فضاءات ثقافية وجغرافية غريبة وأفرزت مزيجا من التصورات العجائبية والعنصرية مرجعيتها سمو الجنس الأبيض وتفوقه. لكن المسألة الأكثر أهمية في هذه الفقرة تبقى الخيط الرفيع الذي يفصل الحقيقة عن الخيال في نص الرحلة وهو الحاجز الذي تجاوزه سويفت باستحضار عوالم عجائبية ذات مغازي سياسية وإنسانية.

ورغم أن سويفت كان سباقا إلى التشكيك في القيمة العلمية للرحلة كوثيقة للاستدلال على ظواهر اجتماعية وثقافية غريبة، فإن الرحلة كجنس أدبي حافظت، وخلال فترات لاحقة، على مكانتها كأحد وسائل الإنتاج المعرفي الأوروبي حول الآخر، ملتزمة بشعاري الدقة والموضوعية كأسسها الأصيلة، وأضحت إلى حين بروز علم الأنثربولوجيا الحديثة، النص الأكثر التصاقا وتعبيرا عن هذه الظواهر الثقافية. وقد ارتبط نمو الرحلة وانتشارها الكبير بداية من القرن الثامن عشر بتزايد احتكاك الأوروبيين بالثقافات المحلية خارج حوض البحر الأبيض المتوسط، وتعاظم نفوذهم على مراكز التجارة الدولية. ورافق هذا الاحتكاك تطور نوعي في الوعي بقيمة هذه الثقافات المتنوعة واهتمام أكبر بفهم الشروط المتحكمة فيها. فهل أدى هذا التفاعل الثقافي إلى بناء وعي جديد بخصوصية الآخر؟ وما مدى قدرة نص الرحلة بوصفها إفرازا لهذا الاحتكاك على التعبير على هذا الوعي الجديد؟

في هذا المقال أحاول أن أوضح أهمية استحضار رؤية نقدية للمعرفة التي يوفرها نص الرحلة وذلك بإبراز الشبكة المعقدة من الاهتمامات المتداخلة والمتناقضة بين ثنايا النص. فالرحلة قبل أن تكون سلسلة من المعلومات المنظمة أو جملة من الانطباعات الشخصية هي نص جمالي مستقل في تراكيبه اللغوية وفريد في بنائه السردي، بحيث إن أي قراءة متأنية تسعى إلى فهم النص في أبعاده التاريخية والفكرية، لابد أيضا أن تقف على خصوصيته الجمالية والبلاغية. وتمكن هذه القراءة المركبة من كشف الستار عن الكثير

من الجوانب الدفينة داخل النص، مما يساعد على تجاوز الوصاية التي يفرضها المؤلف على المتلقي وعلى الافتكاك من سلطته الأدبية.

وإذا كانت هذه بخلاصة شديدة المنهجية التي يستند إليها هذا المقال، فإنها تستمد مادتها من إحدى الرحلات القليلة التي نشرت حول المغرب في أوائل القرن التاسع عشر، وهي رحلة جيمس غري جاكسون An Account of the Empire of Morocco. وقد صدرت في لندن سنة 1809، وأعيد نشرها سنتين بعد ذلك. وتجدر الإشارة في هذا الاستهلال إلى أن صاحب هذا المؤلف أمضى ست عشرة سنة من عمره يشتغل قنصلا لابريطانيا في المغرب، فتنقل بين مدنه وقراه، ودون الكثير عن تقاليده وعاداته، وعن أحواله وظواهره، مواكبا بذلك فترة حكم السلاطين سيدي محمد بن عبد الله ومولاي اليزيد ومولاي هشام ومولاي سليمان.

ولعل أهم ما ميز هذه الفترة القصيرة والحاسمة من تاريخ المغرب الحديث، هو ذاك التراجع الكبير للساكنة المغربية جراء عدد من الحروب والكوارث الطبيعية، أهمها الجفاف الذي ضرب البلاد خلال سنوات 1776 و1782، والذي أدى إلى انتشار المجاعة وهلاك عدد كبير من الضحايا. ثم جاء وباء الطاعون الذي تواصل سنتي 1799 و1800 مخلفا بدوره العديد من الموتى. وبالأرقام، فقد كان أثر هذه الكوارث شديدا على النمو الديمغرافي، بحيث تقلص مجموع سكان المغرب من خمسة ملايين نسمة، في بداية القرن السادس عشر، إلى أقل من ثلاثة ملايين نسمة في نهاية القرن الثامن عشر، كما يشير جون برينيون J. BRIGNON وثلة من المؤرخين المغاربة والأجانب في كتاب (1967) Histoire du Maroc. وبالإضافة إلى مؤلف برينيون، فإن عددا من الدراسات المتخصصة عالجت عواقب هذه الكوارث الطبيعية على الخريطة السكانية للمغرب، أهمها كتاب دانييل نوان Daniel NOIN; La population rurale du Maroc[1]، وأطروحة محمد الأمين البزاز، تاريخ **الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**[2]، والتي تعتمد كثيرا في إحالاتها على رحلة جاكسون.

وتأتي أهمية شهادة جاكسون بالخصوص من الإحصائيات المفصلة التي يقدمها في مستهل كتابه عن السكان المغاربة وتوزعهم بين البوادي والمدن، وهي الإحصائيات التي يلح على دقتها بحكم معرفته بالجغرافيا

1- 2 Vol., P. U. F., 1970.

2 – منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.

السكانية للمغرب. كما تأتي من الفصل الذي أفرده لظاهرة الطاعون وانعكاساته القوية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المغرب في بداية القرن التاسع عشر.

لاشك في أن المتأمل لهذا الفصل لا بد أن تستوقفه الطريقة التي تعلمل معها الكاتب في نقل تفاصيل هذه الظاهرة، فهو فصل يقع في نسخته الإنجليزية الأصلية في 25 صفحة خصصها الكاتب للحديث عن ظهور الطاعون لينتقل إلى آثاره البالغة على السكان في أهم المدن المغربية آنذاك وتأثيره على المردودية الفلاحية، خاتما بتعداد وسائل العلاج من هذا الداء وبإحصاء بعض الأمراض المتفشية بين الساكنة المغربية. وهذه السلاسة في الحكي والبناء المنظم للأفكار هو ما ينعكس على الكتاب كله، بحيث إنه في فصوله الثلاثة عشر ظل جاكسون وفيا لمنهجية الباحث أكثر مما كان منساقا وراء إقحام وقائع مثيرة، أو مندفعا وراء أفكار تحقيرية للوسط الجغرافي الذي عاش فيه. فمؤلف جاكسون هو دراسة معاينة للطبيعة الجغرافية والنباتية والحيوانية والسكانية والثقافية واللغوية للمغرب، ينتفي عنها الأسلوب الحكائي والإثارة الزائدة التي ميزت الكثير من الرحلات الأوروبية حول المغرب، وهي بذلك تقدم نفسها كنموذج إيجابي لتقدم طبيعة ومناهج المعرفة الأوروبية حول العالم.

وهكذا، فبالعودة إلى ظاهرة الطاعون، الذي تفشى في المغرب في أواخر القرن الثامن عشر، نجد جاكسون ملما بتفاصيل عديدة استقاها من الناجين من المغاربة. وفيما يلي مقتطفات من هذا الفصل تقدم لمحة واضحة عن هذا الداء. فعن ظهور الوباء يصرح جاكسون قائلا:

> "في شهر أبريل من سنة 1799 بدأت أعراض وباء خطير ومدمر تظهر في مدينة فاس القديمة لتنتقل سريعا إلى المدينة الجديدة. لقد حصد هذا البلاء غير المسبوق ضحية أو ضحيتين في اليوم الأول، ثم ثلاثة أو أربعة في اليوم الثاني، فستة أو ثمانية في اليوم الثالث، وتصاعدت وتيرته باستمرار حتى بلغ عدد الوفيات اثنين في المائة من مجموع السكان، وبقي على نفس الضراوة لعشرة أيام وخمسة عشر يوما وعشرين يوما متواصلا لفترات أطول في المدينة القديمة عنه في المدينة الجديدة، ثم بدأ في التراجع بكيفية منتظمة من ألف وفاة في اليوم إلى

تسعمائة ثم ثمانمائة وفاة، وهكذا حتى اختفى نهائيا. إن أي لجوء للدواء وللأطباء لم يكن له مفعول، حتى لم يعد أحد يأبه بهذه الحلول، وأصبح السكان في حالة استسلام لهذه المحنة الأليمة وفقدوا كل أمل في البقاء أحياء." (ص. 172).

ويشير جاكسون إلى آثار هذا الوباء على منطقة حاحا فيلاحظ،

"حينما كنت أتنقل عبر هذه المنطقة مدة يسيرة بعد انتهاء الطاعون، رأيت أماكن كثيرة مقفرة وقد سبق لي أن عهدتها قرى مزدهرة. وحين سألت عن أهالي هذه الأماكن الكئيبة، قيل لي إنه في إحدى القرى التي كانت تضم ستمائة ساكن فقط أربعة استطاعوا الإفلات من هذه الكارثة. وفي قرى أخرى، التي بلغت ساكنتها أربعمائة أو خمسمائة، فقط سبع أو ثمانية تمكنوا من النجاة ليحكوا عن المصائب التي حلت بهم." (ص. 173).

ويستمر جاكسون في تقديم الإحصائيات عن ضحايا الطاعون، فيصرح أن عدد المنكوبين في منطقة سوس كان أكبر حجما من كل المناطق الأخرى، بينما بلغ عدد الوفيات في مراكش ألفا في كل يوم. ويضيف قائلا:

"تقلص سكان مدينة فاس القديمة والجديدة الآهلتين بدرجة اثنا عشرة أو خمس عشرة مائة وفاة في اليوم. وبما أن عدد الوفيات كان كبيرا جدا فقد تعذر على الأحياء من السكان دفن الضحايا، فقاموا بوضعهم أو إلقائهم في حفر كبيرة حتى إن امتلأت غطوهم بالتراب. كل مراسيم الدفن التي كان يعمل بها في السابق لم يعد لها قيمة. لم يعد هناك ما يميز الأمور الدينية عن الدنيوية، وأصبح اليأس الشامل يعم الناس." (ص. 174).

وفي أحد هوامشه، يؤكد جاكسون أن ضحايا مدينة مراكش بلغ 50 ألف نسمة، وفي فاس وصل إلى 65 ألفا، بينما في الصويرة لم يتجاوز 4500 وفاة. وبعد استعراض هذه الإحصائيات التي أفرزها الطاعون ينتقل إلى توضيح انعكاساته على التركيبة الاجتماعية والاقتصادية للسكان، فيشير:

"بعد أن انتهى أمر هذه الكارثة العنيفة والمميتة لاحظنا تحولا عاما في أوضاع وظروف الناس، ورأينا أولئك الأفراد الذين كانوا قبل الطاعون مجرد عمال بسطاء يملكون الآن الأموال ويربون الخيول دون أن يعرفوا كيف يركبوها." (ص. 174–175).

ويستطرد قائلا:

"لقد ارتفعت تكاليف العمل بشكل كبير. لم يكن هناك أبدا مساواة بين بني البشر بمثل هذا الوضوح الذي أصبح عليه الحال بعد الطاعون." (ص. 175).

وبالإضافة إلى تقلص اليد العاملة وارتفاع أجرها، كانت هناك تحولات أخرى اجتماعية. وبهذا الخصوص يصرح جاكسون قائلا:

"بعد تراجع عدد السكان وخلو الأراضي من ملاكيها، هاجر الكثير من القبائل العربية من أماكنهم في أعماق الصحراء واستولوا على البلاد المحاذية لوادي درعة ومناطق كثيرة في سوس." (ص.175–176).

وينتقل المؤلف بعد هذه الإشارات السريعة للآثار المختلفة للطاعون على السكان إلى شرح أعراضه وكيفية انتشاره ملحا على أن الطاعون الذي ضرب جنوب إسبانيا فيما بعد كان نتيجة انتقال العدوى عبر مصابين من شمال المغرب. ولا يخفي جاكسون اهتمامه بالتفسيرات التي يقدمها المغاربة عن أسباب الطاعون مستحضرا المعتقدات الخرافية حول دور الجن في نشر هذا الوباء. وفي المقابل يوضح جاكسون أن ملامسة الأجسام المعدية واستنشاق نفس الأشخاص المصابين وحدهما يسببان الإصابة. وهكذا من خلال هذا الإجراء الوقائي الذي يفترض أخذ مسافة معينة بعيدا عن المصاب، يشرح المؤلف كيف كان بإمكانه استقبال ضيوفه الأوروبيين والمغاربة في بيته دون أن يكون معرضا للإصابة.

لعل ما يستوقف القارئ لهذه المقتطفات هو الإحصائيات التي يتناولها المؤلف دون أن يقيم الدليل على صحتها. وإذا اعتبرنا شح المصادر الدقيقة وغياب الوثائق المؤرخة لهذه الظاهرة آنذاك، فإن شهادة جاكسون تبقى محدودة الأهمية من الناحية العلمية. ذلك أن مصادر معلوماته تتجلى في المعاينة بعد انقضاء الوباء بوقت طويل أو في استقاء شهادات بعض الناجين من الوباء. وبناء على ذلك، فحين يقدم جاكسون إحصائيات، فهو يستعمل

عبارات من مثل "لاحظت" أو "سمعت" أو "قيل لي"، وفي حالات عديدة فهو ينأى حتى عن شرح كيفية الحصول على تلك المعلومات. وينعكس كل هذا في النهاية على القيمة العلمية لشهادته. ولا أدل على انتفاء هذه القيمة في نصه من الأرقام المدهشة التي يعرضها في بداية مؤلفه حول ساكنة المغرب والتي قدرها بما يناهز 1809، 14.886.600 نسمة، وهو رقم أجمع المؤرخون على استحالته.

وبغض النظر عن هذه الإحصائيات المبالغ فيها، فرحلة جاكسون بمضامينها المتنوعة ولغتها السردية، تمثل مرحلة متقدمة نسبيا من تطور المعرفة العلمية خارج الإطار الأكاديمي وتصنيفاته الحديثة. إنها المعرفة التي تعتمد على التصورات الشخصية والتجربة الذاتية للمؤلف مفرزة في نهاية المطاف نصا تتزاوج فيه الأحداث البسيطة التي عاشها جاكسون بظروف دقيقة ومعقدة من مثل وباء الطاعون.

والسؤال الذي يلزم طرحه الآن هو: هل يمكن اعتبار الرحلة وثيقة للاستدلال على ظواهر اجتماعية وديموغرافية أم إنها مجرد نص قابل للتحليل على مستويات أخرى لغوية وبلاغية تغيب الجانب الإخباري للرحلة، أو على الأقل تحيطه بمجموعة من الأسئلة التشكيكية؟

إننا بصدد إثارة إشكال منهجي بالغ الأهمية تتبنى عليه في نهاية المطاف رؤى متباينة. ففي حالة تركيزنا على الخصائص البلاغية لنص الرحلة وتحليلنا لشكله الجمالي ولتعابيره ومفرداته معتمدين على تصور يستند إلى نسبية المعلومات المتضمنة في نص الرحلة، فإننا نكون قد سلمنا بأن الرحلة ما هي إلا نص مفتوح لقراءات مختلفة بالمفهوم البنيوي، يهمش فيه ذلك المعنى الأوحد المرتبط بمقاصد المؤلف. وفي الجانب الآخر الذي يرتكز على اعتبار الرحلة مقياسا مهما لبلوغ الحقيقة أساسه المعاينة والملاحظة بدل التحليل الفلسفي الغائص في النصية، ويستند كذلك إلى البحث والتقصي ومقارنة النصوص بغية الوصول إلى معرفة دقيقة وموضوعية، هنا يصبح للرحلة دور أكبر من مجرد بنية لغوية وبلاغية معينة، بل تتحول إلى مرجع من مراجع المعرفة الأكاديمية. وهناك تصور ثالث توفيقي إلى حد ما ينبني على التعامل الحذر مع الإحصائيات والمعلومات التي يقدمها نص الرحلة، بينما يميل إلى رؤية شاملة للرحلة في إطارها التاريخي والثقافي والجمالي تجعل من نص الرحلة نصا غنيا بالدلالات ومفتوحا للتحاليل المتعددة دون أن يخضع لمقاييس الخطإ والصواب التقليديين.

من البديهي أن قراءة مركبة من هذا الصنف لرحلة جاكسون، تضعنا أمام جوانب أخرى غير وجود أو انعدام الدقة في الإحصائيات. ذلك أن القارئ المتفحص لمؤلف جاكسون يجده بحق كتابا جامعا تتقاطع فيه اهتمامات متنوعة ترتبط بالتاريخ والجغرافيا والدين والثقافة والصحة والاقتصاد. وهذه الاهتمامات بقدر ما تعكس درجة من الوعي بالخصوصية الثقافية والجغرافية للمغرب، فإنها أيضا تشير إلى مرحلة معينة من تغلغل النفوذ الأجنبي داخل البوادي والحواضر المغربية. والأكيد أن رحلة جاكسون لم تكن لتستوعب هذه المعلومات حتى وإن كانت تنقصها الدقة والموضوعية لولا السلطة التي يستمدها المؤلف من كونه قنصلا لأحد القوى الأوروبية. فوجوده في المغرب لفترة تنيف عن ستة عشر عاما لاشك مكنه من الإطلاع - و إن حسب منظور شخصي - على تجارب وعادات تختلف اختلافا كبيرا عن ثقافته الموروثة. وهذا الحضور المتواصل لجاكسون هو ما لم يكن متاحا للعديد من الكتاب الذين سبقوه والذين خلفوا نصوصا تختلف شكلا ومضمونا عن رحلته. واقتناع جاكسون بفوائد هذا الحضور هو ما يدفعه لتأكيد:

> "أن المطلع على أمور المغرب،لابد وأن يكون مقيما به لمدة طويلة، له معرفة نافذة بمجالس الدولة وعبقرية الشعب، ومواكبا لهم خلال فترات السلم والحرب، في الحياة العامة والخاصة، متتبعا لقدراتهم العسكرية ونظامهم الاقتصادي، وفوق كل هذا وذاك أن تكون له معرفة دقيقة وعملية بلغتهم حتى يتغلب على مصادر الخطإ وسوء الفهم والتمثيل." (ص v ii - viii).

لاشك أن هذه التوصيات تجد النموذج الأمثل لها في رحلة جاكسون نفسه وفي كتابات جيل من الرحالة الأوروبيين ممن عاصروه أو أتوا بعده. فهي تكرس مفهوم المعاينة والاحتكاك بهذه الثقافة، وتنأى عن المعرفة المتخيلة التي كانت سائدة من قبل، من خلال الكتابات الدرامية حول الشخصية المغربية أو الموريسكية منذ عصر شكسبير ومارلو.

وبالنظر إلى الحيثيات السياسية لهذه الفترة من تاريخ المغرب التي سادتها الحروب الأهلية والمجاعات والأوبئة، فإننا نستحضر لحظة من الضعف العسكري والكساد الاقتصادي الذي فتح الباب تدريجيا أمام تزايد عدد القناصلة الأوروبيين وتعاظم تأثيرهم في السلطة المخزنية، وهو الأمر الذي لم يكن ممكنا خلال فترة حكم المولى إسماعيل مثلا حيث كانت التكتلات

الأوروبية في العرائش وطنجة وسبتة تحت حصار شبه دائم، مما حد من تأثيرها وأدى في نهاية المطاف إلى إلغاء وجودها أصلا في جل هذه المدن الساحلية.

وإذا استعرضنا الكتابات السائدة آنذاك، فإننا لا نجد أي أثر للرحلة في البيبليوغرافيات المنجزة حول المغرب، بينما تكثر المناشير واليوميات والرسائل، وهي الأشكال الجمالية التي تعبر بشكل أو بآخر عن حالة الحصار التي عاشها أصحاب هذه الكتابات داخل قلاعهم وحصونهم وقلة احتكاكهم بالمغاربة. وعلى عكس ذلك فإن البروز اللافت للنظر لجنس الرحلة في أواخر القرن الثامن عشر وانتشارها الواسع خلال القرن التاسع عشر حيث بلغ عدد الرحلات الأوروبية المكتوبة، كلا أو جزءا، حول المغرب بين سنوات 1791 و1850 ما يقارب الأربعين رحلة، وزاد عددها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أمر يثير أكثر من سؤال. ويفسر هذا الترابط الشكلي أو الجمالي لنص الرحلة بالظروف التاريخية للمغرب أبعادا أخرى للرحلة كأحد الوسائل التي اعتمدها الأوروبيون لبسط نفوذهم الفكري والسياسي والعسكري على المغرب من خلال تجميعهم للمعلومات المتنوعة واستغلالها لمصالحهم الخاصة. ورحلة جاكسون، رغم معلوماتها التي تنقصها الدقة والموضوعية، هي لبنة من اللبنات الأولى لهذا المشروع الكبير، حتى وإن ظل البوح بها غير صريح. وهذا ما يستشف من كلام جاكسون نفسه حينما يصرح في تقديمه الافتتاحي للكتاب:

> "إذا أراد الأوروبيون استكشاف المناطق الداخلية لإفريقيا، وإذا أردنا أن نصل إلى هدفنا العظيم من هذا الاستكشاف وهو مركز إفريقيا الوسطى، تامبوكتو، فإن المغرب هو النقطة الأنسب للانطلاق، لكنه من الضروري جدا أن نتغلب أولا على أفكارنا المسبقة وتصوراتنا الخاطئة حول هذه البلاد. لابد لنا أولا من الحصول على تلك الامتيازات التي تنتج من تبادل تجاري نشيط ومتواصل مع أهم الموانئ على الساحل الغربي للمغرب، وحين يتم تحقيق هذه الأهداف فالبقية ستتلو دون أية صعوبة." (ص. iv).

المراجـــــع

- محمد أمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب فـــي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشـــورات كليـــة الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1992.
- Daniel Noin, La population rurale du Maroc, 2 vol., Paris, P. U..F.
- J. G. Jackson, An Account of the Empire of Marocco and the Districts of Suse and Tafilett. London, 1811.
كل المقتطفات المتضمنة هنا ترجمها صاحب المقال مـــن النـــص الأصلـــي، وعليه فالصفحات المحال عليها هي للنص الأصلي.
- Jonathan Swift, Gulliver's Travels. New York, Signet Classic/Penguin Books, 1983.
- E. M. G. Routh, Tangier: England's Lost Atlantic Outpost 1661-1684. London, John Murray, 1912.
- Younes Nékrouf, Une amitié orageuse: Moulay Ismail et Louis XIV, Casablanca, éditons Eddif, 1991.
- Sir Robert Playfair and Dr Rober Brown, A Bibliography of Morocco from the Earliest of Times to the End of 1891, Amersham, Gregg International, 1982.